الطبعة الثانيـــة
الحقوق كلها محفوظة

القـــاهرة
١٣٧٢هـ — ١٩٥٣ م

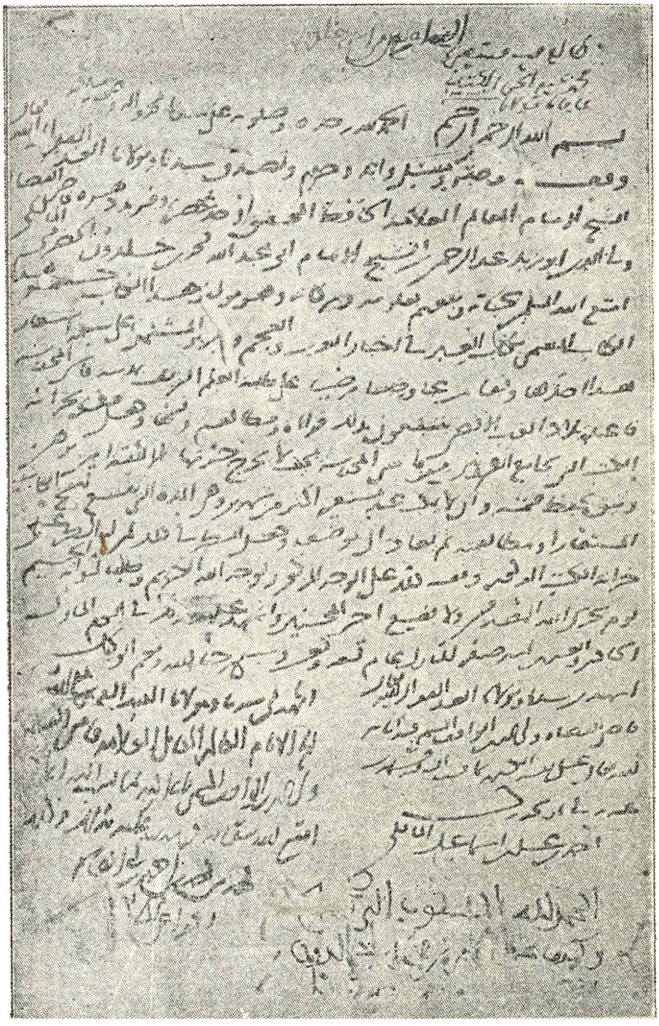

صيغة الوقف التى تحملها نسخة «كتاب العبر» التى وقفها ابن خلدون على طلبة العلم بجامع القرويين بفاس وهى محررة بالقاهرة سنة ٧٩٩ هـ

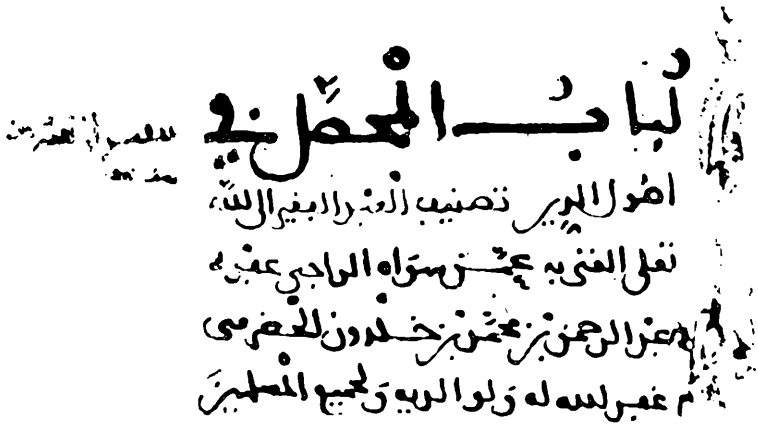
لباب المحصل في
أصول الدين تصنيف الحبر البحر أبي الله
نعلي الغني به بمحمد سواه الراجي عفوه
عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

صفحة العنوان
من كتاب لباب المحصل فى أصول الدين لابن خلدون
وهو المحفوظ بمكتبة دير الاسكوريال (باسبانيا)
برقم ١٦١٤ . والكتاب مكتوب بخط مؤلفه

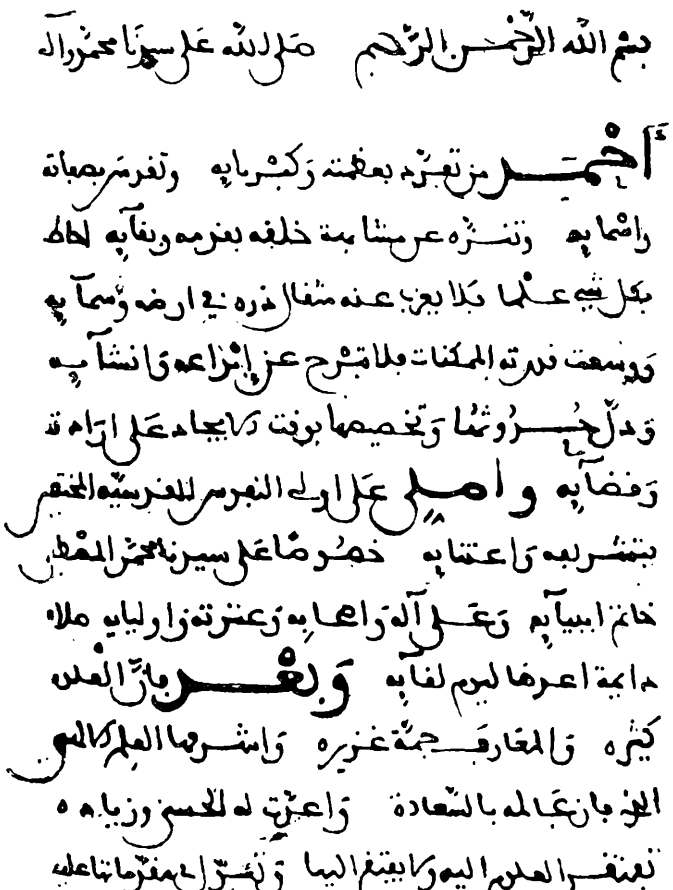

الصفحة الأولى من كتاب لباب المحصل

وهى نموذج حسن من خط ابن خلدون فى شبابه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

ما زال تراث ابن خلدون فريداً بين آثار التفكير الإسلامى ، وما زال يحتفظ رغم كر العصور بكل قيمتـــه وروعته وجدّته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمى . ولكن ابن خلدون الذى اكتشفه الغرب وعكف منـــذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يغمط فى الشرق حقه ، ويكاد يغمر ذكره ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت فى الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، إذا به لا يكاد يظفر بشىء من ذلك فى الشرق موطنـــه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو الى الغبطة أن تجددت ذكرى ابن خلدون فى العهد الأخير ؛ وفى سنة ١٩٣٢ ترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناســـبة انقضاء ستمائة عام على مولده ؛ فاستجابت دوائر التفكير والأدب فى جميع البلاد العربية لهـــذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عـدة حفلات علمية للإشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما فى تونس مسقط رأســـه ومطلع مجده ، وفى مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته ؛ وحفلت المجلات والصحف العربية حيناً بمختلف البحوث عنـه ؛ والتفتت الأنظار نوعاً الى قراءته ودرسه ؛ وظهرت

فى الأعوام الأخيرة عنه وعن تراثه بعض الكتب والدراسات المفيدة .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأت لهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ؛ وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ، فان هذه الدراسة التى أقدمها اليوم فى طبعتها الثانيـة للتعريف بابن خلدون وتراثه ، والتى التمست لكتابتهـا هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ الفيلسوف ، إنما هى عنوان الوفاء والتقدير للمفكر العظيم .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقـد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة ، وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصـة ففصلتها تفصيلا وافياً ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجدل ، شرحاً ضافياً .

أما تراث ابن خلدون فقـد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن أجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقـدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقـة موجزة واضحة ، حتى إذا وقف عليه واستطاع أن يسـيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه ويدرسه بإمعان وإفاضة . أما دراسـة البحث الغربى لابن خلدون

وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة، فقد أفردت له فصلاً خاصاً يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى هذا الشأن.

كذلك رأيت أن أضع بياناً فهرسياً عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مر بهـا حتى تم نشره وظهوره، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره، وما ترجم منه الى مختلف اللغات الأوربية، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكتبات. وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت إليها، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره، لكى يرجع إليها من شاء التوسع والمزيد.

وقد تناولت هذه الطبعة الجديدة بكثير من التنقيح والإضافة، ورأيت أن أذيلها بتراجم الكتاب المصريين المعاصرين لابن خلدون ومعظمها لا يزال مخطوطاً، وكذلك بالترجمة التى وضعها له صديقه ومعاصره المفكر الأندلسى العظيم ابن الخطيب، وذلك زيادة فى التعريف به وبخلاله ممن عرفوا شخصه حق المعرفة.

وعرضت فى هذه الطبعة أيضاً عدة نماذج من خط ابن خلدون، فى مختلف أدوار حياته، فى شبابه، وفى اكتمال كهولته، وفيها يرى القارىء أثراً مادياً من آثار المفكر الكبير، هذا فضلا عما تدلى به من وقائع وبيانات تاريخية ذات شأن.

وأود أن أذكر هنا أن هذه الدراسة التى أقدمها عن ابن خلدون قد ترجمت الى الإنجليزية منـذ أعوام طويلة، وصدرت منها إلى اليوم عدة طبعات(١).

---

(١) نشرت الترجمة الانجليزية بمدينة لاهور، بعناية ناشر الكتب السيد محمد اشرف بعنوان "Ibn Khaldun; his Life and Work" وظهرت الطبعة الثالثة منها فى سنة ١٩٤٦.

ان ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذاً لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ الشباب مقدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مراراً وتكراراً ، لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضاً ليستقى منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعيـــة التى تجول بذهنه وكثيراً مايتعثر فى التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون إذا كانت ثروة لا تقدر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضاً ثروة لا تقدر فى تراث البيان العربى .

فالى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربية ، أقدم هذه الدراسة — فى طبعتهـــا الثانية — لشخصية ممتازة فى التفكير الإسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله إلى وضع مبادىء الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربى وتقديره ، راجياً أن يجد الشباب فى هذه الدراسة ما يحفزه إلى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه .

القاهرة فى مايو سنة ١٩٥٣ محمد عبد الله عنان

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١

فى المغرب والأندلس

٧٣٢ – ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ – ١٣٨٢ م

الفصل الأول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم فى ميدان الرياسة . نزوحهم إلى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة فى بلاط تونس .

كانت سنة ١٩٣٢ مبعث ذكرى خالدة فى التفكير الإسلامى : تلك هى انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسى والفيلسوف الإجتماعى . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فقد كانت هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها ، من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه[1] ، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيراً من خلاله وخواصه ونواحى نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التى تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ؛ وفى هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

أخصب مصادرنا وأهمها فى كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية ؛ فاذا لم تك ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهنالك دائماً وجهة التقدير واستخلاص النواحى المعنوية ؛ وهنالك اختلاف الفهم والعرض . وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التى ارتبطت بهذه السيرة ، فانه يعرضها طبقاً لفهمه ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه فى كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فاذا كنا نغتبط بهذا التراث الذى تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه ما يسهل مهمة ترجمته ، فانا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج فى كثير من المواطن التى نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .

وإذاً فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الأولى فى ترجمته ؛ ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته فى مصر . وسوف نستشيرها جميعاً . وسنتتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله . ولكنا سنحاول أن نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء .

— ١ —

ولد ابن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) فى أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن

عبد الرحمن بن خلدون . ويُرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية فى حضرموت ، ونسبه الى وائل بن حُجر ، ويعتمد فى ذلك على رواية العلامة النسابة الأندلسى ابن حزم[1] ؛ التى أوردها بمناسبة الكلام عن نسب بنى خلدون الإشبيليين حيث يقول : « وكان من أكابرهم كُريب وأبو عثمان خالد ، القائمان بإشبيلية ، اللذين قتلهما ابراهيم بن حجاج اللخمى غيلة ، وهما ابنا عثمان بن بكر بن خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق » .

وأما نسب جده خلدون هـذا الداخل الى الأندلس ، فهو طبقاً لابن حزم أيضـاً « خالد بن عثمان بن هانىء بن الخطاب ابن كريب بن معـد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر » ، فابن خلدون طبقاً لهـذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول اليمانية . ولكن ابن خلدون يشك فى صحة هـذه السلسلة لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عنـد الفتح ، فان عشرة أجداد لا تكفى لقطع الستة قرون ونصف التى انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون

(١) فى كتاب « جمهرة أنساب العرب » (ص ٤٣٠) وقد نشر فى سنة ١٩٤٨ بالقاهرة بعنـاية صديقى العـلامة الأستاذ ليفى بروفنسال . وابن حزم هو أبو محمد بن سعيد بن حزم الأندلسى . وهو فقيه ومفكر كبير، ولد بقرطبة و برع فى الفقه والأصول ودراسة الفرق الاسلامية . وأشهر مؤلفاته كتاب «الأحكام فى أصول الأحكام» و «الفصل فى الملل والأهواء والنحل» و«طوق الحمامة» وغيرها . توفى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) . وقد خصه العلامة الاسبانى آسين بلاثيوس بكتاب باللغة الاسبانية عنوانه « ابن حزم القرطبى » Abenhazm de Cordoba

باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . ومن جهة أخرى فهنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى ، ويقوى هذا الشك لدينا مانعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس ؛ فقد اشترك البربر فى فتح الأندلس، وقاموا بمعظم أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ؛ واستمرت الخصومة بينهما أحقاباً طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة فى الأندلس شرفاً يرغب فى الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ؛ ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ؛ بل لقد تطرق هذا الشك إلى أصول وأنساب زعماء الفاتحين أنفسهم ، فقيل مثلا عن طارق ابن زياد ، إنه من البربر وقيل إنه فارسى من موالى العرب . وهنالك أيضاً ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل ، بينما نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالهم وصفاتهم(١) .

وعلى أى حال فان ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الأندلس فى جند اليمانية ونزل أولا فى مدينة قرمونة ، ونشأ بها بيته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية .

---

(١) سنعرض إلى ذلك فى فصل قادم .

ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) ، ففى عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحى ؛ وكانت إشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة ؛ ثار بها أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وعبد الله وابراهيم ابنا الحجاج ، وكريب[1] وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قِبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، ودس على عبد الله ابن الحجاج من قتله ؛ فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا فى مناوأته ، وقاتلوه حتى قتل ؛ واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ المتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة ، فخشى كريب أمره وأشركه معه فى حكم إشبيلية . ولما اشتدت الفتنة أرسل الأمير عبد الله قواته الى إشبيلية ، فقاتلت الثوار حتى هزموا ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر زعماء الفتنة . واتفق فى النهاية على أن يشترك فى حكم المدينة ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته . وكان كريب صارماً شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا إلى ابراهيم لما رأوه من رفقه

---

(١) وردت فى التعريف (كريت) — كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٨٠ . وهو تحريف واضح والصواب أنها كريب .

ولينه ؛ واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سراً على عهد بولاية إشبيلية ؛ ثم ثار فى أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء بنى عباد على إشبيلية ؛ فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، ورقت الى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد ، وشهد زعماؤها موقعة الزلاّقة الشهيرة التى انتصر فيها المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين اللمتونى وحلفاؤه الأندلسيون وعلى رأسهم المعتمد بن عباد على ألفونسو السادس ملك قشتالة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م) واستشهد جماعة منهم فى الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعاً ، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ؛ ثم قام الموحدون بالمغرب وقضوا على دولة المرابطين وانتزعوا منهم سيادة الأندلس ؛ وأقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، فولى على إشبيلية وغرب الأندلس أبوحفص زعيم قبيلة هنتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاة الجدد ، واستعادوا قسطاً من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وتضعضعت قواعدها وثغورها ، وأخذت تسقط تباعاً فى يد الاسبان ، نزح الأمير أبو زكرياً الحفصى حفيد أبى حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع فى يد النصارى ، ونزلوا حيناً بسبتة ، فأكرمهم حاكمها الحفصى ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن

محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمـــير أبى زكريا فى مدينة بونه ، فأغدق عليـه عطفه ونعمـه ؛ ثم توفى الأمـير أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والســعة . وفى عهد أبى إسحاق ، ولى أبو بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جـــد المؤرخ شئون الحجابة حيناً لأبى فارس ولد أبى إسحاق وولى عهـده ، وكان قـد استقل بحكم بجـاية . ثم اضطرب ملك بنى حفص ، وثار بهم زعيم يدعى ابن أبى عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبا بكر بن خلدون وقتله وصـــادر أمواله ؛ وبقى ولده محمد فى بلاط بجاية ، وخاض غمار المعارك التى نشبت يومئذ بين بنى حفص والخوارج عليهم ؛ ولبث يتقلب فى ظل بنى حفص فى مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقى مع ذلك على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفى سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) . أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفى إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فتى يافعاً فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ، ولم يظهر منهم إلى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد(١).

---

(١) ذكر ابن خلدون أخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف ».

— ٢ —

كان ابن خلدون إذاً سليل أسرة عريقة نابهة ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ فى مهد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته ، تهديه جدودها وتقاليدها ، ودرج فى حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقه فى القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب ؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التى درس فيها . ويبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعاً فى درس الحديث والفقه المالكى ، وعلوم اللغة والشعر[١] . ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ؛ وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما[٢] ، وقد شهدله جميع أساتذته وأجازوه[٣] .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت العالم الإسلامى كله من سمرقند الى المغرب ، ونعنى بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ؛ وهو نفس الوباء

---

(١) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٣) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح .

الفاتك الذى عصف يومئذ بايطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذى ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور(١) . وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معاً سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون الى تلك النكبة غير مرة فى لهجة مؤثرة فيقول إنها : « طوت البساط بما فيه » ، وفيها : «ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار فى الدرس ، فعول على النزوح الى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وأصحابه ، فرده عن ذلك أخوه الأكبر محمد .

وتبدو روعة النكبة فيما ذكره ابن خاتمة الأندلسى فى رسالة له عن هذا الوباء الذى طاف بالأندلس فى نفس الوقت وعصف بمدنها ومجتمعاتها أيما عصف . فقد ذكر أن الوباء لبث فى بلده ألمرية أشهراً وأحصى من يموت كل يوم بسبعين . ثم يقول . « وأين هذا العدد مما بلغنا عن غيره من بلاد المسلمين والنصارى فقد بلغنا على ألسنة الثقات أنه هلك فى يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة ، وبتلمسان سبعمائة نسمة ، وهلك بجزيرة ميورقة فى يوم أربعة وعشرين من شهر مائة ألف نسمة . . .وكذا كان سائر البلاد صغيرها وكبيرها على ما تأتى إلينا »(٢) .

---

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره فى الشرق والغرب فى فصل خاص فى كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

(٢) اطلعنا على هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بمكتبة الأسكوريال وعنوانها «تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » ورقم هذه المجموعة ١٧٨٥ .

ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت لابن خلدون فرصة النزول الى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتى أبى اسحاق ؛ وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرخ يومئذ حدثاً فى دون العشرين .

الفصل الثانى

ابن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص و بنو عبدالواد و بنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر. تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب. فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبى عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطماعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالتآمر . سجنه ومحنته . إفراج الوزير الحسن بن عمر عنه و رده إلى وظائفه . انتهازه للفرص وانقلابه على الوزير الحسن . دعوته للسلطان أبى سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبى سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطة المظالم . سقوط أبى سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر بن عبدالله على الدولة. انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه و بين الوزير . إعتزامه الرحلة إلى الأندلس

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحاً للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقيـــة) دولة بنى حفص ، وقامت دولة بنى عبد الواد فى تلمسان والمغرب الأوسط ، وقامت دولة بنى مَرين فى فاس والمغرب الأقصى . وقامت فى ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء . وكان أكبر غنم فى تراث الموحدين لبنى مرين ؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبتة وجزءاً من المغرب الأوسط وأحياناً جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى عبر الى الأندلس وغزا أرض النصارى وهزمهم أكثر من مرة مجدداً بذلك عهد الجهاد ، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وتعاقب من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذى نتحدث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففى سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعاً من يد بنى عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدت دولة بنى مرين شرقاً حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعـــد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بنى حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها فى أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنـــه السلطان أبى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبى يحيى ؛ ولبث نحو عامين فى تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه الى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان أبي عنان لانتزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ، وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفي ذلك الحين كان بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم الثغور وبايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبي يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد ملك أسرته. ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله ابن تافراكين ، وانتزع منه العرش ،وأقام فيه أخاه الطفل أبا اسحق ابن أبي يحيى في كفالتـــه وتحت اســـتبداده ، وذلك في أوائل سنة ٧٥١ هـ . (١٣٥٠ م) .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع ؛ والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم إمارات صغيرة متعاقبة ، في القواعد والثغور الوسطى مثل بجاية وقسنطينة ، وبونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر ؛ وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة والملك ؛ وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع في فترات السلم القليلة ، وتتنافس في البهاء والبذخ ، وتجتذب